ليلة الثأر

سار المحراث يشق الأرض يقلب عاليها أسفلها وأسفلها عاليها وقد دفن حدّه اللامع في باطنها . وتحركت البهيمتان يتبعهما جسد طويل متين البنيان ، وقد أمسك بيساره خشبة المحراث ، وبيمناه عصا طويلة يستحث بها البهيمتين كلما بدا منهما تكاسل أو تراخ .

كان ذلك فى احدى القرى القريبة من القاهرة ، وكان الجو قد شمله ضباب ثقيل لم تستطع شمس الصباح بأشعتها الواهنة الرقيقة أن تبدده أو تنفذ خلاله ، فبدت ذراتها البيضاء معلقة فى الجو ساكنة راكدة لايكاد المرء يتثاءب ويتنفس حتى يتصاعد من فمه دخان كثيف .. وظهرت قطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم الداكنة الخضرة .. وتوقفت احدى البهيمتين ترعى بقايا خضرة الأرض .. فتصاعد من ورائها صوت ينهرها : (حا) ، وكان الصوت صوتا نسائيا على ما فيه من غلظ وخشونة فقد كان السائر وراء المحراث امرأة .. أجل .. كان الجسد الطويل الفارع ، المتين البنيان ، هو جسد أم بهانة .

وقد أخذت تحرث الجزء الباقى من أرضها الذى لم يتم زرعه بعد .. لم يكن المرأة لتفترق عن الرجل فى شيء .. وأعنى بالرجل .. الرجل الشديد المراس ، القوى الشكيمة .. المهاب الجانب .. الموفور الكرامة .. وكانت تقوم على زرع أفدنتها الخمسة بنفسها لايعينها فى ذلك سوى ابنتها بهانة ، وعامل أو عاملان تستأجرهما فى وقت تغيير الزرع .. واستمرت المرأة فى تقليب الأرض جيئة وذهابا بينما أخذ ذهنها يكد فى التدبير .. ماذا فعلت ؟ . وماذا ستفعل ؟ . هل تبيع فدان البرسيم – الفحل – أم تتمهل قليلا ؟ .. ثلاثة جنيهات للقيراط ليست بالسعر الذى تطمع فيه .. ولكنها تخشى ان استمرت فى الرفض أن تضيع الفرصة ويبور البرسيم .. ثم ان السيد الساقط خير من غيره .. فهو مضمون فى الدفع .. سريع فى حمل البرسيم لأنه متعهد الجيش ، وسيخلى لها الأرض فى يوم أو يومين . فتستطيع أن تنتفع بزراعتها مرة أو مرتين خضروات .. ثم قفز ذهنها قفزة سريعة الى محصول الذرة .. لقد كان الإنتاج وفيرا فى هذا العام .. وهى تأمل أن تسدد منه المال .. وتبتاع الكسوة وتوقف ذهنها عن التفكير فجأة ، وبدرت منها صيحة غاضبة محذّرة : (يا بهانة حوّلى المياه .. لقد كاد الحوض أن يغرق) وعلى مسافة قريبة بدت بهانة وقد انحنت تضرب الأرض بفأسها وتحوّل المياه عن حوض البرسيم القريب .. الى حوض آخر .. ثم انتصبت واقفة فبدا جسدها استواء وامتلاء .. وبرز صدرها بروزا طبيعيا غير متكلف ولا مصطنع وسألتها أمها :

– هل أحضرت تقاوى اللفت لكى نبذره على الفحل ؟

– أجل .. لقد وضعتها بجوار الجميزة .

وتحوّل بصر المرأة الى الجميزة القائمة على قارعة الطريق فرأت بجوارها رجلا يقتطع بفأسه من كوم السماد القائم أسفل الشجرة ، وعاد ذهن المرأة فى الشرود مرة أخرى .. وبدا على وجهها تجهم شديد .. لشد ما كان يسوءها من ابنتها هذا التهافت منها على محمود ابن الشيخ معاطى .. ماذا حدا بالفتاة الى أن تخص هذا الفتى وحده دون سائر خلق الله بعطفها أو حبها .. هذا المخلوق الذى كانت تحس له المرأة حقدا وضغينة لم تستطع الأيام فى مرّها أن تمحوها أو تخفف من حدّتها .. لقد كانت ترى فيه ملامح أمه .. أمه الفاجرة العاهرة التى أفسدت عليها حياتها ، وسلبتها الراحة والنعيم .. وانطلق ذهنها يعدو فى ضروب الماضى البعيد .. المظلم الأرجاء .. الشبيه بذلك الضباب الذى يحيط بها .

وبدأت تستعرض صوره الباهتة ، فأبصرت بنفسها فى ربيع العمر ومستهل الحياة .. وأبصرت زوجها فى ريعان شبابه ومن حولها الأرض الطيبة .. وقد أخرجت الزرع من باطنها أخضر تجرى فى عروقه ماء الحياة .

كانت تحس وقتذاك أن أفدنتهما الثلاثة ضيعة واسعة .. وأن بيتهما الطينى قصر شامخ .. وهل يمكن أن يحس صاحب الضيعة وصاحب القصر بسعادة أكثر من تلك السعادة التى تفيض بها نفسها ؟ وتذكرت كيف وضعت بهانة وكيف ألم بنفسها حزن .. خشية أن يحزن زوجها لأنها لم تنجب له ولدا .. ولكن زوجها لم يحزن ولم يكتئب .. على النقيض ، لقد كانت فرحته بالطفلة لاتوصف .. وتذكرت بعد ذلك كيف بعثت الطفلة فى حياتها ضياء فوق ضياء .. ومنحتها هناء فوق هناء .. وكيف كان أبوها يتفاعل بها فلا يفتح عينيه

فى الصباح الا اذا أحضرتها له حتى تكون أول ما يفتح عليه بصره .. واستمرت قانعة بحياتها راضية مرضية حتى بدأت تبصر بأول سحب الشقاء تعكر صفو حياتها .. انها تذكر أول يوم رأت فيه تلك السحب المعتمة حين أقبل عليها زوجها يقول لها فى غير اكتراث :

– هل سمعت ما فعله ذلك الشيخ المخرّف ؟

– من ؟

– الشيخ معاطى !

– الشيخ معاطى رجل مخرّف ! .. حرام عليك .. انه من أفاضل الناس .

– لقد كان من أفاضلهم حتى أمس .. أما اليوم فقد أضحى من مخابيلهم .

– ولم ؟ ماذا حدث منه ؟

– لقد تزوّج .

وبهتت المرأة بعض الشيء .. ولكن ما تعرفه عن طيبة نفس الرجل وقوة ايمانه جعلها تدافع عنه لتلتمس له المعاذير فقالت :

– وما العيب فى أن يتزوج ؟ .. لقد مضى عامان على وفاة زوجته والرجل ما زال – رغم بلوغه الخمسين – فى عنفوانه وفى أوج صحته .. فلم نحرم عليه ما أحله الله ؟

– هل تدرين من تزوج ؟

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

- وأنى لى أن أعرف !

- تزوج سنية الغازية .

وبدرت منها صيحة دهشة لم تستطع كتمانها ووجدت نفسها تكرر - وهى مبهوتة - سنية الغازية ! قل شيئا غير هذا ! ان الشيخ معاطى رجل عاقل .

وكان من العسير عليها أن تصدق أن الرجل الطيب الرزين الحكيم .. قد أقبل على مثل هذا العمل الجنونى حتى رأت - الغازية - بعينى تحتل دار الشيخ وتجلس معه موضع السيدة .. ترى ماذا أصاب الرجل حتى دفعه الى التردى الى تلك الهاوية ؟ .. أمثله يتزوج المرأة الملوّثة العاهرة ؟ .. هذه المرأة التى ليس لها مورد للرزق الا رنين الصاجات بين يديها .. وهز الردفين ، وعرض جسدها للبيع والايجار ، ولم يحاول أن يستمع لنصح ناصح .. بل ركب رأسه واتبع هواه وأعرض عن الناس وأعرضوا عنه .. وانطوى مع امراته فى عقر داره .. حتى مرّ بهما عام أو ما يقرب العام .. فوضعت له ابنه محمود .. وكانت فرحة الرجل بالطفل شديدة ، وهو الذى عاش مع امرأته الأولى دهرا طويلا .. لم ينعم الله عليه بالبنين .

وبدأ الناس يصلون ما انقطع من الصلات بينهم وبينه ، بعد مارأوا من امرأته ذلك الانطواء والإقلاع عن الفسق والفجور وكان أول من وصله .. هى وزوجها .. أجل .. لقد عادت الصلة بين الجارين الى ما كانت عليه ، وحلت المودة محل القطيعة .. وبدأت هى تقبل على -

الغازية – وتتخذ منها صديقة لها .. ومرّت الأيام فاذا بها تلحظ تغيرا ملموسا فى سلوك زوجها ومعاملته لها ، فلم تجد منه ذلك الحنان والإقبال .. وساء خلقه .. ولاحت لها فى الجو بوادر عاصفة تكاد تودى بحياتها .

لم يكن من العسير عليها أن تدرك أن الحية قد بدأت تلعب بذيلها ، وتنصب الحبال حول زوجها .. فقد أخذت الألسن تتناقل الإشاعات بأن هناك صلة بين زوجها وبين الغازية .. وأنهما قد اتخذا من الجميزة محلا مختارا لعلاقتهما الآثمة .. ولم تكتف الغازية بصيد واحد .. وبدأت تمد شباكها لتوقع ما تستطيع من الرجال .. فاذا بها تسمع عن علاقات أخرى بينها وبين ابراهيم شيخ الخفراء ، وبين عبد الصبور ابن العمده . وكبتت المرأة أحزانها بين الضلوع وقالت لنفسها : نوبة طارئة من الهوى والطيش سرعان ما تزول وفترة جموح سرعان ما يعود بعدها الى سابق هدوئه وسكينته ، وحاولت جهدها أن تخفى غيرتها وأن تعالجه باللين حتى يعود الى حظيرتها .. وأخيرا عاد الى حظيرتها ، ولكن عودته كانت بشكل لم يخطر لها قط على بال .. ذلك لقد كانت عودته فى حلكة الليل محمولا على الأعناق .. مضرجا بدمائه لانفس فيه ولاحراك .

تذكرت كيف دَوى فى سكون الليل صوت الرصاص .. وهى جالسة تنتظر عودته كما تعوّدت دائما أن تنتظره ، وقد وضعت ابنتها فى حجرها .. وكانت ترفع أكفها من آن لآخر الى السماء تدعو الله أن ينقذه من تلك الحية الآثمة .. وقد عصفت بنفسها الغيرة والحزن وقد أفزعها دوى الرصاص .. ولكن فزعها لم يكن أكثر من فزع البهيمتين المستلقيتين أمامها عندما فتحتا عينيهما لحظة .. ثم عادتا الى

سباتهما .. كما عادت هى الى الاستغراق فى التفكير حتى أحست بعد لحظات بوقع أقدام تقترب فى الخارج .. وأصوات مختلفة تتصايح وتتهامس .. ثم دفع الباب وأبصرت على ضوء الذبالة التى تتراقص جسد زوجها والدماء تقطر منه .. ودوّت منها صيحة ذعر وارتمت على الجسد مولولة نائحة .

وكان الرجل مازال فيه بقية رمق ففتح عينيه واستغفرها ثم اسلم الروح ، وأجرى التحقيق بعد ذلك .. فلم يكشف القاتل .. اذا لم يعرف سوى أن الرجل كان يجلس تحت الجميزة عندما أصابته الرصاصة وقيدت الجريمة ضد مجهول ، ومع ذلك فقد كانت هى تعرف القاتل .. وتعرف يقينا أنه لم يكن سوى ابراهيم شيخ الخفراء .. وأحد المتنافسين على الغازية ، وأنه قد قتله عندما أبصره يجلس واياها تحت الجميزة .. فاختفى بين عيدان الذرة وأفرغ رصاصته فى صدره فأرداه قتيلا .. ولكن أى فائدة من أن تدلهم على القاتل .. وهى لاتعرف فيما بينها وبين نفسها أن هناك قاتلا سوى المرأة الفاجرة ؟ . أى فائدة تعود عليها وهى لن تفعل أكثر من أن تضيف الى ضحايا المرأة ضحية أخرى.. ثم تظل هى بعد ذلك بمنجاة عن العقاب ؟ لا .. لا .. ان ابراهيم شيخ الخفراء – رغم أنه قاتل – فانه فى نظرها لايعدو أن يكون ضحية بريئة .. أما القاتل يجب أن تثأر لنفسها منه فهى المرأة ، ولكن الغازية لم تعطها فرصة الانتقام .. وقد فرّت من القرية تاركة زوجها محطما مهدما .. لايعزيه فى الحياة سوى ابنه الطفل .. ومرّت السنوات بها بعد ذلك وجمرة الثأر تتأرجح فى نفسها .. وسوس الانتقام ينخر فى صدرها فيقض مضجعها .. ويثقل كاهلها ويقوض ظهرها .. وقاومت الزمن والأحداث .. فضاعفت فدادينها الثلاث .. وأطلق عليها أهل القرية اسم

(المرأة الرجل) .. وكبرت ابنتها وأضحت فتاة مكتملة ناضجة .. ونما ابن الغازية وأضحى شابا فارع الطول .

ودفع القدر كلا منهما فى طريق الآخر فاذا بكل منهما يقع فى هوى صاحبه ، وكانت تحس للفتى الحقد الذى كانت تضمره لأمه .. وكانت رغبتها المكبوتة فى الانتقام من الأم تدفعها الى أن تحوّل انتقامها اليه .. فكانت تحاول دائما أن تبعد بينه وبين ابنتها .. وبدأت تقرّب اليها الفتى الوحيد الذى يستطيع أن يقف ندا له وينتزعها منه .. وهو عليوة ابن ابراهيم شيخ الخفراء .. لقد بدأت تضرب أحدهما بالآخر .. ابن القاتل فى عرف القانون .. وابن القاتلة فى عرفها .. فهذه خير وسيلة للثأر لزوجها .

وسطعت الشمس دافئة فبددت الضباب وبدت الخضرة ممتدة على مدى البصر .. وانتهت المرأة من حرث قطعة الأرض .. وانتهت الابنة من رى البرسيم المسقاوى بعد أن حذرتها أمها من أن تمتد المياه الى البرسيم الفحل لأنها قد نوت بيعه .. ورفعت بهانة بصرها فوقع على محمود وقد وقف فى نهاية الطريق وأخذ يشير لها خفية فأحست بقلبها يهفو .. وودّت لو تطير اليه ولكنها كانت تعلم ما تضمره أمها نحوه .. وتعلم كيف حذرتها من لقائه أو الحديث معه . وتعلم أن عقابا يمكن أن توقعه بها لو علمت بأنها تخالف أمرها ولم تكن الفتاة تدرك بعد سر بغض أمها للفتى ، ولا كانت تعلم شيئا عن الماضى الدفين فى صدرها .. بل كل ما كانت تعلمه هو أن أباها قد مات وهى طفلة لاتعى فى الحياة شيئا .. وأن أمها هى كل ما لها فى هذه الدنيا .. وانصرف محمود دون أن تجسر الفتاة على الذهاب اليه .. ومرّت الساعات والأم وابنتها منهمكتان فى زراعة الأرض .. وقبيل العصر بدأت الأم تفك

البهائم وأنبأت ابنتها أن تستعد للعودة الى الدار .. ودهشت الفتاة فقد كان الوقت ما زال مبكرا .. واستفسرت من أمها عن السبب فى هذه العودة المبكرة فأنبأتها ببساطة أن عليوه وأباه سيحضران لقراءة الفاتحة ولإتمام الخطوبة .. وأحست الفتاة بغصة فى حلقها وبرغبة شديدة فى البكاء .. ولكنها كتمت ما بها ، فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من الاعتراض .. وتبعت أمها الى الدار ، ولم تمض فترة قصيرة حتى حضر الشيخ ابراهيم وابنه وقرأت الفاتحة وانتهى الأمر .. وخرج الفتى والفتاة يتنزهان على شاطىء الترعة .. وكانت الفتاة لاتكاد تتماسك .. اذ كانت تحس أنها لاتبصر ما أمامها وأنها على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى .. ووصلت الى الجميزة وهى مطأطئة الرأس واجمة حزينة .. ورنت ببصرها فاذا بها تبصر أمامها محمود .. وأحست بقلبها يكاد يقفز بين جوانحها .. وتمنت لو استطاعت أن ترتمى بين أحضانه .. ولكنها لم تجسر .. ووقفت متسمرة فى مكانها وكان محمود أول من تكلم فقد سألها فى دهشة واستياء :

- الى أين ؟

واجابه عليوة فى غضب مكتوم :

- ليس من شأنك تسأل !

- وقال محمود فى سخرية واحتقار :

- خير لك أن تتركها وتعود من حيث أتيت .

- أنا أتركها ؟ ! أترك خطيبتى ؟

- خطيبتك ؟ !

ثم نظر الى الفتاة يستوضحها جلية الأمر فأطرقت وقد سالت من عينيها دمعتان صامتتان ، وعلم محمود الحقيقة وأدرك أن أمها قد فعلتها .. وأن الفتاة قد أجبرت على ما حدث .. وانتابته ثورة غضب جامحة .. وأدرك أنه لن يستطيع الحياة بدون الفتاة ، وأن من العبث أن يحاول التفاهم مع أمها .. فهجم على عليوه .. واشتبك الإثنان .. ولم تمض لحظة حتى كان عليوه طريح الأرض والدماء تسيل من جرح في جبهته وقد فقد وعيه .. ونهض محمود وهو يلهث وقال للفتاة :

- هيا ..

وسألته وأنفاسها تتلاحق من فرط الذعر :

- الى أين ؟

- نهرب من القرية .

ونظرت الى الفتى الراقد بلا حراك ثم قالت هامسة :

- عليوه .. أنتركه هكذا ؟

ولكنه لم يجبها بل جرّها من يدها وابتعد بها وسط الظلمة ولم تقاوم الفتاة فقد كانت تحس بالحنين اليه فأخذت تهرول بجواره وهي مشدوهة حيرى .

وسألته في الطريق :

- ألا نذهب الى بيتكم فقد يستطيع أبوك أن يدبر أمرنا ؟

- أبي ! هذا العاجز المريض الواهن المشلول الذى لايستطيع حتى أن يدبر أمر نفسه .. تنتظرين منه أن يدبر أمرنا ؟

ان بيتنا هو أول مكان سيخطر على بالهم أن يبحثوا عنا فيه .. خير لنا أن ننطلق الى القاهرة فلن نعدم وسيلة للرزق والمدينة واسعة تستطيع ابتلاعنا في جوفها فلا يعثر علينا أحد .

ومع ذلك فقد استوقفهما أول شرطى صادفهما فى نقطة المرور الكائنة عند مدخل المدينة .. فقد أبلغ المركز عنهما ، وأعيدا الى القرية مرة أخرى وأودعا مركز الشرطة وهناك وجدت الفتاة أمها والشيخ ابراهيم . فأحست بخيبة أليمة وحزن مرير .. وكانت الأم تشعر بنشوة ولذة الانتقام لقد سقط ابن ابراهيم الشيخ صريعا بين الحياة والموت .. وهاهو ابن (الغازية) سيوضع فى السجن بتهمة الشروع فى قتل . وفى تلك اللحظة أقبل شيخ واهن العظم يجر ساقيه ويتوكأ على عصاه .. وقف بين القوم يلهث وهو لايكاد يلتقط أنفاسه .. وتبين فيه القوم الشيخ معاطى فأخذوا لمرآه وعجب ابنه كيف استطاع أبوه أن يصل الى المخفر وهو الذى لايكاد يغادر فراشه .. وتحدث الشيخ موجها القول الى المرأة المنتصبة أمامه فى عناد وتحد والتى بدت فى عينيها ومضة الفوز :

– أنا أعرف ما برأسك .. أعرف مالا يعرفه أحد من هؤلاء كلهم .. أعرف طريقتك الصبورة فى الانتقام ، ولكنى أكره أن تحمل أبناؤنا أوزارنا .. انى وحدى المسئول عن كل ما حدث . أنا الذى أدخلت الجرثومة الفاسدة فى معشرنا الطيب .. وأنا الذى كان يجب علىّ أن أتحمل وزر مافعلت .. كان يجب أن أقتل أنا زوجك دفاعا عن شرفى المهين بدلا من أن أترك الشيخ ابراهيم يقتله وأتركك تثأرين منه ومنها فى ولديهما .. كان يجب أن أقوم أنا بالثأر بدلا من أن أدع الغير يتحمل عنى وزره .. ومع ذلك فانى لا أجد الوقت قد فات فأنا

أشعر أني قادر على أن أثأر لنفسي ولك .. وأن أحمل العبء عنكم جميعا .

وانتفض الشيخ العاجز ، وفي لمح البرق ، وقبل أن يدرك أحد من الجمع ما ينوي أن يفعل .. اختطف بندقية من يد أحد الخفراء ثم أفرغها في صدر ابراهيم شيخ الخفراء .. وخر الرجل صريعا ، وألقى الشيخ سلاحه وهو يقول :

– هكذا يجب أن يكون الثأر .

ثم حاول أن يتلمس عصاه ليتوكأ عليها .. ولكن قواه التي حشدها في لحظة الثأر كانت قد خارت .. لقد استنفدت فعلته كل مابقي من زيت في سراج حياته .. فكانت ثورته أشبه بومضة برق خبت بعد اشتعال .

وهوى الشيخ في مكانه وتكأكأ عليه الخفراء .. ولكنه كان قد أفلت من بين أيديهم .. لقد أطلقوا على جسده ، أما روحه فكانت قد صعدت هاربة .

وجر الحراس جسدي الشيخين الى الخارج ، وأحست أم بهانة أن جذوة الثأر في نفسها قد انطفأت .. وعجبت لنفسها كيف أمضت السنين الطوال تذكي لهيبها وتشعل أوارها .. وأحست أنه لم يعد هناك موجب للانتقام من محمود .. وغادرت المخفر مطأطئة الرأس منحنية الهامة .

ومدت بهانة يدها الى محمود فضغطت عليها معزية وهمست قائلة :

– لقد ظننته عاجزا .. ولكنه استطاع أن يدبر أمرنا قبل أن يرحل .. لن أتركك بعد هذا أبدا .